حركة التجميع القصصى

يقول السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان فى حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن :

« وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والامم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الاشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص » .

فحركة التاريخ والقصص كانت واحدة من الحركات الفنية والعلمية التى نبعت كضرورة حتمية لمحاولة فهم القرآن وشرح آياته والتعرف على أحكامه .. ولهذا لم يكن غريبا أن تبدأ هذه الحركة منذ عصر الخلفاء الراشدين ، ويلاحظ الاستاذ أحمد أمين فى فجر الاسلام ان ما عرف فى صدر الاسلام من أخبار الامم الماضية والاجيال الغابرة كان الاساس الذى بنيت عليه المؤلفات التى ألفت بعد هذا . ككتب ابن اسحق وابن جرير الطبرى وأمثالهما ..

ويقول : « ويدل على ذلك انك لو تتبعت فى ابن جرير الطبرى — مثلا — سلسلة رواته وجدت أن الرواة الثلاثة أو الاربعة الذين يتصلون بحياته كانوا فى العصر العباسى ، وهؤلاء يروون عمن قبلهم ممن كانوا فى عهد الامويين أو الخلفاء

الراشدين ، أعنى بذلك أن هذه الحوادث كانت معروفة فى ذلك العصر ، وابن اســـحق وأمثـــاله انما دونوا ما كان معروفا وجمعوه » .

فحركة التجميع اذن لم تتأخر الى عصر التـــدوين فى أيام العباسيين ، وانما بدأ التجميع منذ الخلفاء الراشدين ، ونحن نزعم لبدئه أسبابا هى :

١ ــ الحاجة الى تفهم سور القرآن والتعرف على دلالات ما تحكى من قصص ، فكان لابد اذن من رواية هذه القصص بتفاصيلها ووقائعها . والذين يعرفون ما يتعلق بهذه القصص هم أصحاب العلم من أهل الكتاب من يهود ومسيحيين ، وهم أهل الاخبار الذين يحملون الاقاصيص عن الملوك الغابرين .. وقد تتبع الاستاذ أحمد أمين فى تفسير ابن جرير تفسير الآيات التى وردت عن اليهود فاذ بها تروى عن وهب بن منبه وهو من يهود اليمن واسلم ، كما تتبع فى الطبرى تفسير ما جاء عن النصارى فاذ به يروى عن ابن جريج وهو رومى من أصـــل نصرانى ..

فالمسلمون اذن لجأوا الى من يعرفون ليقصوا عليهم ماتعلق بأنباء أهل الكتاب الذين حكى عنهم القرآن .. وقد راعى هؤلاء فى رواياتهم أن لا تختلف فى شىء عما جاء بالقرآن .. واذا تتبعت كتاب التيجان لوهب بن منبه تلمح هذه الظاهرة جلية واضحة ، فهو اذا تعرض لذكر قصة مما كان بالقرآن تجده يستند الى آيات

القرآن فيذكرها فى خلال روايته للقصة ، بل تبدو قصته فى احيان كثيرة وكأنما هى تفسير قصصى للآيات التى يذكرها ..

وخلال هذا التفسير يحكى التفاصيل ويورد الأسماء والوقائع مفصلا كل شىء ، بل ومجريا الحوار بين أبطال القصة..وسواء حور هؤلاء القصاصون ما كانوا يعرفون ليلائم ما جاء بالقرآن ، او اعملوا خيالهم وما لديهم من معلومات مستمدة مما حفظوا من أخبار وقراوا من كتب ليقدموا التفسير القصصى الروائى ، فقد ادى عملهم هذا على اية حال الى تجميع اكبر عدد ممكن من القصص التى عرفها العرب سواء من تراثهم او من أصحاب الكتاب ..

٢ — يذهب ابن خلدون فى مقدمته الى « أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم البداوة والامية ، واذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخلقية واسرار الوجود ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم » ..

والذى نريد أن نذهب اليه هو أن هذا التطلع الى المعرفة لم يات بعد الاسلام ، وانما هو بدأ عند العرب قبل الاسلام بكثير وانهم عرفوا عن طريق هذه الرغبة الملحة فى المعرفة الكثير من الاساطير والحكايات تناقلوها واستمعوا اليها قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام استمروا فى شغفهم هذا بالقصص

والاساطير وقد وجدوا فى قصص القرآن ما يسد حاجتهم الى الكثير من المعرفة ، وما يجعلهم يستزيدون من هذه القصص ..

والعرب فى تطلعهم هذا انما كانوا يستمدون معارفهم لا من اهل الكتاب وحسب وانما من العارفين بحكايات الجزيرة العربية وامثالها ومن الملمين بأيام العرب وحروبهم .. ونزعم أن هذه الرغبـــة فى المعرفة هى التى فرضت الذوق العربى على طريقة سرد القصة ، وهى تعتمد اعتمادا كبيرا على تدوين القصة محملة بالشعر ونماذج الخطابة .

٣ ــ وهناك دافع نفسى لا يقل خطرا واهمية عن الدافعين السابقين ، ذلك أن جزيرة العرب كانت لها فى هذه الاساطير التى عرفتها منذ جاهليتها ، أبطالها ومثلها . وجاء الاسلام بأحداث خطيرة أسهم فيهـــا كل المسلمين من عرب وغير عرب ، ومن الطبيعى أن تتطلع النفوس الى خلق القصص والاساطير حول الابطال الجدد كما كانت تخلقها وتحكيها عن الابطال القدامى ..

ومن هنا كان الاهتمام بأخبار الغزوات والمعارك، فنجد أن أوائل الكتب التى نعرفها عن صدر الاسلام كتب المغازى،وأول من اشتهر فى تأليف المغازى أبان بن عثمان بن عفان.. وتتناول رسائل عروة بن الزبير وقائع كثيرة وهامة فى تاريخ صدرالاسلام كهجرة الحبشة وموقعـــة بدر وفتح مكة .. ومن الواضح أن هدف القاصين هنا كان يسير مع نفس أهداف القاصين من قبل، فما كان التاريخ الا وسيلة لسرد الاحداث الروائية والقصصية

التى تحمل المثل وتخلق الابطال .. وقد روى أن وهب بن منبه الف كتابا فى المغازى وما احسبك تتخيل انه قد غير منهجه الذى ابعه فى ذكر ملوك حمير فيه ، ففهمه كقصاص لاحداث المغازى لن يختلف فى شىء عن فهمه لأحداث التاريخ .

٤ ــ دخل الاسلام كثير من ابنـــاء الشـــعوب الاخرى ، ولهؤلاء اساطيرهم وقصصهم ، بل لهؤلاء تاريخهم وابطـــالهم ، ومن الطبيعى أن يدخل هؤلاء الوافدون تاريخهم واساطيرهم وقصصهم الى الحياة الجديدة التى دخلوها.. والتاريخ والأساطير والقصص هى أول الوان المعارف تداولا ثم تأتى بعـــد هذا مرحلة ترجمة العلوم ونقل الفلسفات ..

٥ ــ اتخذ القصص اداة من ادوات النضال بين الشيع والاحزاب ، اى استغل استغلالا سياسيا للترويج للاشخاص والمبادىء ، وقد روى عن يزيد بن حبيب أن عليا رضى الله عنه قنت فدعا على قوم من اهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب يدعو له ولاهل الشام.. وقد جاء فى المقريزى عن الليث بن سعد أن معاوية ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبى صلى الله عليـــه وسلم ، ودعا للخليفة ولاهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافة ..

فالتناس والخصومة التائمة بين على وأبى بكر ثم بين

على معاوية،وبين عبدالله بن الزبير وعبد الملك، ثم بين الأمويين والعباسين ، كانت لا شك حافزا ضخما يخوض فيه القصاصون يرفعون شأن من يوالونهم ويخفضون من قيمة من يعادون .. وقد دخلت هذه العداوة فى وضع الحديث فيقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة « واعلم أن أصل الكذب فى حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فانهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة فى صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم » ، والذى حدث فى الحديث وهو ما هو عليه من الخطورة والاهمية ؛ لا شك أنه حدث فى القصص على صورة أوسع وأرحب ..

بل ان ما عرف عن العرب من تنازع الرياسة والفخر والشرف كان ولا شك أحد أسباب رواج القصص التى تزعم الفضل لقبيلة وتذل لها أعناق باقى القبائل . وحين يتقدم العصر سنجد فى سيرة عنترة بن شداد حديثا عن بنى عبس يضعهم فوق العرب أجمعين .. وحين تتتبع وهب بن منبه فى كتابه انتيجان ستحس ما يحاول أن يثبته اثباتا من فضل اليمنيين على غيرهم ، بل ومن تنبؤهم بالرسالة والرسول ، وايمان ملوكهم الاقدمين بمحمد ورسالته ..

وأضيف الى هذا كله ذلك الصراع بين العرب والعجم والروم ، ومن تعصب كل الى جنسه وطائفته ، وما سجلته القصص العربية من صراع مرير بين العرب وغيرهم ، وما قررته

من تفضيل للعرب وسيادة لهم على كل جنس .. ومن هنا كانت العناية بكتب الانساب والايام . وقد روى ابن النديم فى الفهرست أن زياد بن أبيه ألف كتابا فى مثالب العرب ، ويذهب الدكتور حسين نصار فى كتابه (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) الى أنه كتاب فى الأنساب ألفه زياد بعد استلحاق معاوية اياه وتعيير الناس له ، فأراد أن يزود نفسه بسلاح يخيف به المتعرضين له. ويرجع الدكتور حسين نصار أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه .. وكتاب عبيد بن شرية الذى جمعت فيه اسماره مع معاوية اسمه : أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وانسابها ..

٦ ــ وهناك سبب أخير لعله كان من أسباب الوضع والتأليف لا فى القصص وحسب وانما فى الحديث كذلك ، ذلك هو حاجة المسلمين فى تفسير آيات القرآن الى معرفة أسباب نزولها ومكان نزولها ، والحادثة التى تشير اليها .. كما انه من المعروف أن النبى (ص) قد أقر الكثير من الأحكام الاجتماعية التى كان العرب يعرفونها ، كما أنكر الكثير منها وعدل بعضها ، فاحتاج المفسرون بلا شك الى معرفة كل ما يمكن أن يعرفوه عن عصر النبى (ص) وسيرته ، كما احتاجوا الى ما يمكن أن يفسر لهم الكثير من الأحكام من حكايات العرب قبل الاسلام وتقاليدهم وحياتهم وعاداتهم ..

وقد أورد السيوطى فى الجزء الثانى من الاتقان قول الامام أحمد بن حنبل ، « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » .

والامام أحمد يعنى انهـا اقرب الى القصص منهـا الى الحقائق التاريخية المتواضع على صحتها ..